الحج كان سببا في ظهور رحالة مسلمين !!

بقلم الاستاذ عبد الفتاح ابو مدين

عُرف الرحالة المسلمون من الصدر الاول للاسلام ، فقد عُرف نَفَر من المسلمين منذ القرن الثالث الهجري ، بارتياد بلاد الامبراطورية الاسلامية الواسعة ، من الهند شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، ومن آسية الوسطى وجبال القوقاز شمالا .. الى صحارى افريقية جنوبا .

ثم بدأت الرحلات تأخذ طابعها الرسمي عند المسلمين ، بتكليف من السلطات المركزية الاسلامية في بغداد ، حينما كانت المركز الاول للخلافة الاسلامية في العهد العباسي . وذلك لمعرفة الطرق والممالك التي تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها ، ولدراسة الاحوال التي تهم اولي الامر في ادارة (الامبراطورية) الاسلامية الواسعة ، وتطبيق احكام الشريعة فيها .. ثم شملت هذه الرحلات طائفة من الحجاج الى بيت الله الحرام . فكان الحج سببا في ظهور رحالة مسلمين ، اشهرهم — ابو الحسين محمد بن جبير الاندلسي — وقد بدأ رحلته من غرناطة في المغرب الاقصى ، في شهر شوال .. سنة ثمان وسبعين ، بعد المائة الخامسة هجرية .

* ثم كان — ابو عبدالله محمد بن عبدالله ابن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي — المشهور بابن بطوطة . وفي العصر الحديث ، عرف الاستاذ ابراهيم المازني في كتابه الذي اسماه «رحلة الحجاز» ، والدكتور محمد حسين هيكل ألف كتابا اسماه «في منزل الوحي» ، رحمهم الله جميعا .

* كان الحج من اغنى الينابيع التي زودت الحجاج بألوان المعرفة ، وقد صحب الحجاج القصص والاخبار التي سمعوها في طريقهم . وقد وصفوا ما وقفوا عليه في سبيلهم ، ودوّن بعضهم من واسعي الثقافة مشاهداتهم بعد عودتهم .. فكانت حافزا لطالبي المعرفة ، للسعي الى الحج .

* وفيما قرأت من كتب الرحلات ، لم اجد دافعا لهؤلاء الرحالة المشهورين .. في رحلاتهم المشهورة الثرة ، سوى قصد الحج الى بيت الله الحرام . لقد دفعهم الى الحج ما نقل الحجاج من اقاصيص وأخبار ، استهوتهم وجعلتهم يخوضون التجربة ، فرقعة البلاد الاسلامية واسعة .. وسبل المواصلات لم تكن سوى وسائل البحر البدائية والدواب ، لذلك فان اخبار البلاد الاسلامية .. بل الامم الاخرى ، كانت او تكاد تكون منقطعة عن بعضها البعض . اذن فان الفضل الاول لوجود هذه الثروة من قصص وغرائب الرحلات الاسلامية وغيرها ، كان مصدرها الحج وحده ، الذي اتاح ونمى حب الاستطلاع .

* وكانت حياة الناس في القرون الاولى تتسم بالبساطة ، رغم متاعب السفر وفقدان الامن في الطريق الطويلة الى الحجاز . وقد دفعت رحلة الحج ابن جبير وابن بطوطة الى ان يضربا في الارض العريضة الواسعة ، غير مبالين بالمتاعب والمصاعب الكثيرة .

رحل ابن جبير ثلاثا من الاندلس الى المشرق وحج في كل واحدة منهن .. على ان رحلات ابن جبير الثلاث ، لم تزد عن تسع سنين ، وقد توفاه الله في مدينة الاسكندرية . اما رحلة ابن بطوطة فقد استغرقت ربع قرن من الزمن ، بدأها شابا ، لم يتجاوز الثانية والعشرين .. وألقى عصى التسيار في بلده وقد بلغ الخمسين .

* وتمتاز رحلة ابن بطوطة بالبساطة وسلاسة اللفظ وجمال الديباجة ، اما اسلوب ابن جبير فهو امتن وأدسم ، وابن جبير شاعر وأديب واسع الاطلاع .

انشأ ابن جبير قصيدة حين شارف المدينة المنورة ، بدأها بقوله :

اقول وآنست بالليل نارا
لعل سراج الهدى قد انارا
والا فما بال افق الدجى
كأن سنا البرق فيه استطارا

ونحن من الليل في حنـــدس
فما بالـــه قد تجلى نهـــارا
وهـذا نسيم شـذا المسك قـد
اعير ام المسك منه استعارا
وكنـا شكونـا عنـاء السرى
فعدنـا نبـاري سراع المهـارا

الى ان يقول :

ولاح لنـــا احـــد مشرقـــا
بنور من الشـــهداء استنارا
فمن اجل ذلك ظـل الدجى
يحل عقود النجوم انتثـــارا
ومن طرب الركب حث الخطى
اليها ونادى البـدار البـدارا
ولما حللنا فنـــاء الرســـول
نزلنـــا بأكـــرم خلق جوارا

الى آخر هذه القصيدة الرصيفة الجميلة ، وفي غبطـة الحج يقول الرحـــالة الشاعر ابن جبير :

هنيئا لمن حج بيت الهـــدى
وحط عن النفس اوزارهـــا

ويقول ايضا :

بلغت المنـا وحللت الحـــرم
فعاد شبابك بعـــد الهـــرم
فأهـــلا بمكة اهـــلا بها
وشكرا لمن شـــكره يلتـــزم

على ان ابن جبير لم يخرج في رحلته عن الطريق المرسومة الى المشرق بالبحر والبر ، ولم يتجاوز في الجزيرة العربية العراق والبصرة والشام وما حولهن . امـــا ابن بطوطة فقد جاب الارض ، طاف بالمعمور في الجزيرة العربية وأطرافها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وسافر لتركية حتى وصل سيبيريا ، وذهب الى الهند وأندونيسيا ، وتوغل في المشرق حتى وصل الصين ، ثم عاد وتوغل في افريقية .. وقد صور الغريب مما رآه وشهده . حتى ان قومه في مدينة فاس بالمغرب ، لم يصدقوا اخباره وأقاصيصه لغرابتها ، لا فرق في ذلك بين متعلم وجاهل .

وابن بطوطة رجل عالم اختير قاضيا في مصر والهند ، اما ابن جبير فهو شاعر مجيد ، وقد اهتما بحياة الشعوب التي مرا بها وعاشا معها ، وصوّرا ذلك في كتابيهما اصدق تصوير وأدقه . والكتابان ثروة تجاريب وأسفار طويلة شاقة ، وهما جديران بالمطالعة والدرس ، كما ان كتابي الاستاذين المازني وهيكل الحديثين يعتبران من كتب الرحلات الحديثة ، وان كان مداهما غير بعيد .. وغير طويل .. الا ان الرجلين يجيـــدان تصوير الوقائع وخلجات النفس .. لخصب خيالهما .. وسعة ثقافتهما ، وكثرة اطلاعهما ، ومهما يكن من امر فكتابا هيكل والمازني صورة انطباعات ودراسة .. تصل الماضي بالحاضر بأسلوب الرجلين المجيدين .

• والواقع اننا محتاجون الى هذا اللون من الانتاج الثقافي .. الذي انكمش ، لأنه لم يعد يحقق الغرض الذي يتوق اليه القارىء العربي .. فالكتّاب اصبحوا يهتمون بنوع معين في كتاباتهم .. وأساليبهم نفسها طبعت بالطابع الصحفي .. الذي يختفي ظله رغم تسلط الاضواء عليه .. لان الهيكل كالخيـــال .. فكيـــف يتصور الانسان او يستمتع «بخيال الظل» ؟